بناء الفكر في القرآن الكريم وأثره في معالجة الغلو

د. يحيى مقبل صالح الصباحي
استاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد بجامعة صنعاء
كلية التربية والآداب والعلوم –مأرب
yahyam1977@gmail.com

الملخص

يسعى البحث لإبراز أثر ودور البناء الفكري السليم في علاج الغلو والوقاية منه ،ويناقش اشكالية علاقة الفكر بالغلو، وكيف يمكن علاجه من خلال الفكر، وقد تناول البحث الموضوع من خلال العناصر الرئيسة التالية:

١- مفهوم بناء الفكر ودلالته.

٢- المنشأ الفكري للغلو.

٣- أسس بناء الفكروأثرها في معالجة الغلو.

وخلص البحث إلى أن البناء الفكري : عملية تحصيل وتراكم المعرفة والتفقه فيها، ينتج تصوراً، ينبثق عنه سلوك يؤهله للتفاعل السلبي أو الايجابي مع من حوله .

وأن المنشأ الفكري للغلو نابع من عدة عوامل أهمها :

أ - مصدر التلقي: حيث ثبت من خلال استقراء الواقع، وعبر التاريخ أن الغلو ناتج عن سوء الفهم ، وغياب الرؤية الواضحة في التعامل مع مصدر التلقي، مما أورث مصادر بديلة أضرت بالفرد والمجتمع .

ب - القراءة المبتورة للنصوص أدت إلى غياب مقاصد التشريع، وغايات النص الشرعي في ذهن المستدل والمستنبط ،والوقوع في أسر المسائل الجزئية، أنتج فكرا مشوشا، قاد إلى ظاهرية مفرطة، جردت النصوص من مقاصدها.

لذا ترتكز عملية بناء الفكر السليم على عدة عوامل، تبنى من خلالها التصورات الذهنية، و تترجم إلى سلوك في الحياة اليومية أهمها البيئة الاجتماعية و البيئة التعليمية.

وللمحافظة على بناء الفكر السليم، ضبط القرآن الكريم مصدر التلقي، وأقام المنهج على أساس الفقه وحسن الفهم ، عن طريق الاستدلال العقلي وفتح باب النظر في المآلات، والتزود المستمر بالمعرفة ، بما يتيح سعة الأفق والنضج في التفكير ، والنظرة الكلية، و الخروج من التربية التقليدية الهزيلة.

وعليه فإن طريق النجاة من الوقوع في الغلو يتمثل في بناء الفكر السوي من خلال عمق الفقه، واستيعاب النصوص ، وتنسيق قواعد الفهم لها ، وإشاعة طرائق الاستنباط السليم منها، وإدراك مقاصدها، عاصم من الزلل والوقوع في الغلو، وطريق لبناء الفكر المدرك لغايات الشريعة ومقاصد الأحكام ، و فقه تنزيلها على الواقع والتعامل مع المخالف.

8

Abstract

The research is seeks to highlight the role of the proper intellectual building in treatment and prevention of extremism, and discusses the problematic relationship between extremism and intellect, and how the extremism can be treated through intellect.

The research has addressed the topic through three key elements:

1. The concept of building intellect and its significance 2- Intellectual origin of extremism 3- The foundations of building intellect.

The research has found that the intellectual building: the collection and accumulation of knowledge and deep understanding of it, produces a vision emerges behavior that qualifies ones for the negative or positive interaction with those around him.

And that the intellectual origin of the extremism stems from several factors, including:

(A) Source of receiving: It has been proven through extrapolation of reality and history that extremism is due to misunderstanding, and the absence of a clear vision in dealing with the source of receiving, which bequeathed alternative sources, hurt the individual and society.

(B) Amputated reading of the texts led to the absence of the Purposes of Legislation, and the purposes of the legitimate text in the mind of inferred and contriver and falling into servitude of partial issues. Resulted in building of muddled thought, led to excessive superficiality, stripped the text of its purposes.

Building proper thought process is based on several factors, from which intellectual perceptions are built, and translated into behavior in the daily life of the most important is the social environment and learning environment.

In order to maintain the proper building of thought, the Koran adjusted receiving source and established a curriculum based on jurisprudence and good understanding, through mental inference and opening consideration in construed, and continuous supply of knowledge, allowing the horizon capacity and maturity in thinking, holism and avoiding conventional and meager breeding.

Accordingly, the path of salvation is in the depth of jurisprudence and to accommodate the texts, and to coordinate the rules of their understanding, and to promote the proper methods of deducting them, and the realization of their purposes, preventative of slippage and falling into extremism. A way to build a thought that perceive the purposes of Legislation and provisions, and the jurisprudence of implementing them on reality and dealing with the contrary.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ،نحمده تعالى ، ونستعينه، ونستهديه ، ونتوكل عليه ونؤمن به، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ونشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد:

أوكل الله للإنسان مهمة الاستخلاف في الأرض، وحددها سلفا قبل أن يخلقه قال تعالى:{ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً } فأجابت الملائكة كما حكى الله عنها: {قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ } فقال سبحانه: {قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} (١) ، فسفك الدماء والإفساد في الأرض مناف لعملية الاستخلاف.

ولذا نهى سبحانه و تعالى عن الإفساد في الأرض فقال: {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا } (٢) وذم مدعي الصلاح وهم سائرون في طرق الفساد: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ} (٣) فاستقامة الحياة وعمارتها لا تحصل إلا بمحاربة الفساد بكل أنواعه ،لتستقر حياة الناس، وينعموا بالأمن فتؤدى العبادات، وتنتشر قيم الخير والإحسان .

ولتحقيق غاية الاستخلاف، وبناء الحياة كما أرادها الله ، هدى القرآن الكريم الإنسان إلى ما ينفعه، وبين له سُبل الخير، وأبان له الواقع الذي يعيشه في دار الابتلاء ، لكي لا يزل ولا يحيد عن هدى الله ومنهجه، فلا يقع في الغلو أو يفرط بما أُمر به .

فجاء القرآن الكريم مخاطباً العقل، بانياً للفكر، داعياً إلى التفكر والتأمل ، حاثاً على استيعاب من حوله من المخلوقات، ثم إلى استيعاب نفسه وتقلباتها، والنظر إلى الاختلاف بين البشر، وأنه كائن إلى يوم الدين، ثم التأمل في الحياة، وأن ما فيها من وجوه الاختلاف والصراع، لا يمكن له أن يُحسم بصورته النهائية فيها، لأنها دار ابتلاء وامتحان.

وبناء على ما سبق: فإن البحث المقدم يسعى لإيضاح دور البناء الفكري السليم في علاج الغلو والوقاية منه ، من خلال مخطط البحث التالي :

١- سورة البقرة الآية: ٣٠ .

٢- سورة الأعراف الآية:٥٦.

٣- سورة البقرة الآية:١١.

أولاً :أهداف البحث:

الهدف العام للبحث: يهدف البحث إلى بيان منهج القرآن في بناء الفكر، ودوره في معالجة الغلو .

الأهداف الجزئية :

١ - التعرف على المنشأ الفكري للغلو .

٢ - بيان الأسس التي من خلالها يبنى الفكر الإنساني البناء السليم وأثرها في معالجة الغلو والوقاية منه ابتداءً .

ثانياً: مشكلة البحث: يناقش البحث اشكالية علاقة الفكر بالغلو، وكيف يمكن علاجه من خلال الفكر؟ ويحاول الإجابة على السؤال التالي:

ما هو المنشأ الفكري للغلو ، وكيف تعامل القرآن الكريم معه ، وكيف عالج آثاره ؟

ثالثاً: الدراسات السابقة:

كثير هي الدراسات والمقالات التي تتناول موضوع الغلو من جوانب عدة ، وكذا المؤتمرات التي عقدت خصوصا في ظل تزايد ظاهرة العنف والإرهاب، وهو ما أثرى بشكل خاص الحديث عن موضوع الغلو.

لكن ما يميز هذه الدراسة أنها ركزة على جانب بناء الفكر وعلاقته بمعالجة الغلو، مما يضيف إلى البعد الفكري بعد البناء ابتداء ، إذا هو الأساس وهو ما تناوله القرآن الكريم ابتداء في أول نزوله بكلمة (اقرأ) فخاطب العقل ببناء المعرفة القائمة على القراءة والتعلم، وفتح آفاق المعرفة في مجالات الحياة المختلفة .

رابعاً: **منهجية البحث :** اعتمدت الدراسة على المناهج التالية:

أ - المنهج الاستنباطي:

وهو المنهج الذي قام على دراسة النصوص ، بهدف استنباط منشأ الغلو، واستخراج أسس البناء الفكري في القرآن الكريم، ومعرفة وسائل تحقيقها مؤيدة بالأدلة.

ب - المنهج الوصفي التحليلي:

عن طريق استقراء الآيات الداعية إلى إعمال العقل والفكر، و الآيات التي تحدثت عن العلم و المعرفة ، ومن ثم وصف ظاهرة البناء الفكري، وبيان آثارها في محاربة الغلو، وإيجاد الشخصية المتوازنة.

خامساً : خطة البحث:

اقتضت طبيعة الموضوع تقسيمه إلى مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة، وتفصيلها كالتالي:

- ❖ المقدمة: وتشمل أهداف الدراسة ، والمشكلة ، والمنهجية، والدراسات السابقة .

- ❖ المبحث الأول: مفهوم بناء الفكر ودلالته. وفيه مطلبان:

  المطلب الأول : مفهوم البناء .

  المطلب الثاني : مفهوم الفكر .

- ❖ المبحث الثاني : المنشأ الفكري للغلو، وفيه مطلبان :

  المطلب الأول: مصدر التلقي وأثره في المنشأ الفكري للغلو .

  المطلب الثاني : العوامل المؤثرة في المنشأ الفكري للغلو .

- ❖ المبحث الثالث : أسس بناء الفكر وأثرها في معالجة الغلو، وفيه مطلبان:

  المطلب الأول: ضبط مصدر التلقي وأثره في معالجة الغلو.

  المطلب الثاني: التزود المستمر بالمعرفة وأثره في معالجة الغلو.

- ❖ الخاتمة : وتشمل أهم نتائج البحث والتوصيات .

المبحث الأول

مفهوم بناء الفكر ودلالته

ستتناول الدراسة في هذا المبحث مفهوم البناء الفكري ، باعتبار مفهوم كل جزء منه ، ثم باعتبار المركب الاضافي ، مع بيان دلالات الألفاظ من خلال الآتي:

المطلب الأول

مفهوم البناء

البناء في اللغة:

مصدره الفعل بنى ،وجمعه أبنية وأبنيات، تقول: بنيت البناء أبنيه إذا ضممت بعضه إلى بعض . والبنية بضم الباء وكسرها (مابنيته) وجمعه بُنى وبنى (١) .

والبنيُ: نقيض الهدم ،والبناء: المبني ، والبنَاء: مدير البناء وصانعه [٢] .

ومن المجاز :بنى على أهله دخل عليها..... وقالوا : بنى بأهله : أعرس بها (٣).

ومن خلال ماسبق فإن دلالات المعاني اللغوية تفيد الآتي:

١ - البناء :ضم الشيء بعضه إلى بعض على صفة يراد لها الدوام .

٢ - البناء: يؤدي وظيفة محددة مكتملة كالسكن أو الزواج أو ما إلى هنالك .

٣ - البناء: عملية متكاملة أبرز أوصافها الانسجام والتناغم بين عناصره .

المطلب الثاني

مفهوم الفكر

الفكر في اللغة:قال ابن فارس: "الفاء والكاف والراء تردد القلب في الشيء. يقال: تفكَّر إذا ردد قلبه معتبرًا. ورجل فِكِّير: كثير الفكر ".(٤) وقال العلامة الراغب -رحمه الله -: "الفكرة قوةٌ مُطرِقة للعلم إلى المعلوم، والتفكر جولان تلك القوة بحسب نظر العقل، وذلك للإنسان دون الحيوان... قال بعض الأدباء: الفكر مقلوب عن الفرك، لكن يستعمل الفكر في المعاني؛ وهو فرك الأمور وبحثها طلبًا للوصول إلى حقيقتها "(٥) .

١- ينظر :ابن فارس ، معجم المقاييس في اللغة ص١٥٦. ، دار النشر: دار الجيل - بيروت - لبنان ، الطبعة الثانية - ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون.

٢- ينظر: ابن منظور، لسان العرب١٤/٨٩ . دار النشر: دار صادر - بيروت، الطبعة.

٣- ينظر: الزمخشري أبو القاسم محمود بن عمر ،أساس البلاغة ،ص٣١ .

٤- ابن فارس: المصدر السابق ٤/ ٤٤٦ وانظر: الصحاح ٢/ ٧٨٣ .

٥- الراغب الأصفهاني:مفردات ألفاظ القرآن ص ٣٩٨ بيروت، دار المعرفة ط١٩٩٩م.

الفكر في الاصطلاح:

قال الفيومي: "ويقال: الْفِكْرُ تَرْتِيبُ أُمُورٍ فِي الذِّهْنِ يُتَوَصّلُ بِهَا إلَى مَطْلُوبٍ؛ يَكُونُ عِلْمًا، أَوْ ظَنًّا "(١)

يقول جميل صليبا: "وجملة القول: إن الفكر يطلق على الفعل الذي تقوم به النفس عند حركتها في المعقولات، أو يطلق على المعقولات نفسها، فإذا أطلق على فعل النفس دل على حركتها الذاتية، وهي النظر والتأمل، وإذا أطلق على المعقولات، دل على المفهوم الذي تفكر فيه النفس "(٢) .

وعرّفه الزنيدي بقوله: "الفكر في المصطلح الفكري –والفلسفي خاصة – هو: الفعل الذي تقوم به النفس عند حركتها في المعقولات؛ أي النظر والتأمل والتدبر والاستنباط والحكم، ونحو ذلك، وهو كذلك المعقولات نفسها؛ أي الموضوعات التي أنتجها العقل البشري "(٣) .

ودلالات التعاريف السابقة تشمل :

١ - **مفهوم الفكر يشمل النظر العقلي، وما ينتج عن ذلك النظر من علوم ومعارف.**

٢ - **الفكر عملية ذهنية مبنية على مدخلات العقل عن طريق الحواس ، وما يتبعه من الظن أو الوهم والتخيل ،ومخرجاتها القول والفعل المرتبط بالسلوك الإنساني في الحياة .**

٣ - **ثمرة الفكر: التفكر والتفكير والذي يشمل كل أنواع النشاط العقلي أو السلوك المعرفي الذي يتميز بتوظيف الرموز في معالجة الأشياء والأحداث، بدلاً من معالجتها عن طريق النشاط الظاهري المحسوس أو المادي.**

٤ - **الفكر: من خلاله يبحث عن المعنى سواء أكان هذا المعنى موجوداً، أو يستخلص ويستنبط من أمور لا يبدوا فيها ظاهرا ، وإنما بإعمال الفكر والتفكر ليستخلص من متفرقات موجودة .**

مما سبق يمكن أن نعرف بناء الفكر باعتباره مركباً إضافياً بالآتي :

القاعدة التي تركز عليها تصرفات الإنسان وتعاملاته وأقواله وخطرات نفسه ، فما من فعل يقوم به أو قول يقوله أو فكرة تجول إلا ويكون ذلك نابعا من البناء الفكري لشخصيته ، وهذا البناء قد يضم توجهات فكرية يدين بها أو عقيدة يعتنقها أو علما تعلمه ، أو طرائق تفكير تعودها عقله أو رؤى محددة لشتى مناحي الحياة. فالبناء الفكري : عملية تحصيل وتراكم المعرفة والتفقه فيها، ينتج سلوكاً وخبرة تؤهله للتفاعل السلبي أو الايجابي مع من حوله .

---

١ – أحمد بن محمد الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير،٢/ ٤٧٩، بدون طبعة (دار الفكر بدون تاريخ).

٢ – جميل صليبا، المعجم الفلسفي ٢/ ١٥٦ (بيروت: دار الكتاب اللبناني ١٩٨٢ م).

٣ – د.عبد الرحمن الزنيدي، حقيقة الفكر الإسلامي ص١٠، الطبعة الثانية (الرياض: دار المسلم ١٤٢٢ ه – ٢٠٠٢ م) .

إذا هو عملية تسمح للإنسان بتصور العالم المحيط به ، وبالتالي التعامل معه بفاعلية إيجابا أو سلبا حسب ما تصوره .

إن البناء الفكري يتعلق بالعقل، والعقل هو آلة الفكر، وأداة التأمل والتفكر، الذي هو أساس استخراج المعارف، وطريق بناء الحضارات، وتحقيق الاستخلاف في الأرض، ولذلك كانت المحافظة على العقل، وحمايته من المفسدات، مقصدًا من مقاصد الشريعة الإسلامية، وسلامة العقل لا تتحقق إلا بالمحافظة عليه من المؤثرات الحسية والمعنوية.

ولذا دعا الإسلام في تشريعاته إلى إدراك الغايات والأهداف لا مجرد الظواهر والصور، وذم النبي صلي الله عليه وسلم قوماً التزموا الظاهر، فوقعوا في الغلو، وجروا الأمة إلى النكبات، فاستحلوا الدماء والأموال فقال: «قَوْمٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ، يَقْتُلُونَ أَهْلَ الإِسْلاَمِ، وَيَدَعُونَ أَهْلَ الأَوْثَانِ، لَئِنْ أَنَا أَدْرَكْتُهُمْ لأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ»(١).

المبحث الثاني

المنشأ الفكري للغلو وأثره في سلوك الإنسان

الأفكار كالمنتجات لها مواد أولية، تستخرج من خلالها مواد تصنيعها، فكل فكر له منشأ ينشأ من خلاله فيؤثر في الإنسان سلبا وإيجابا ، يحمل الأفكار ابتداء، ثم يتبناها قولا وفعلا ، ويحاول غرسها في غيره .

ومن هنا ندرك أهمية منشأ الفكر، وكيف يمكن أن يهيئ التهيئة السليمة التي تنتج فكراً مستقيماً ، فالنبي صلى الله عليه وسلم ،أدرك هذا المعنى منذ بداية دعواته، فكان يقول لقريش(خلو بيني وبين الناس)(٢)، وكانت قريش تدرك أنها إذا فقدت حاضنة معتقداتها وفكرها ، ووجد منشأ آخر سينهي ما تعتقده لسلامة ما يدعو إليه الإسلام، وبطلان ما يقومون به.

في هذا المبحث ستتناول الدراسة المنشأ الفكري للغلو من خلال مطلبين :

---

١ – أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصحيح مع الفتح، تحقيق: محب الدين الخطيب، كتاب أحاديث الأنبياء باب قول الله تعالى: «وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله »٦ /٤٣٣. الطبعة الثانية ،القاهرة: دار الريان للتراث ١٤٠٩ ه ١٩٨٨ م .

٢ – ينظر : مسند الإمام أحمد رقم الحديث 18431 ج٤ص٣٢٦ من حديث الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ ومروان بن الحكم ، دار النشر: مؤسسة قرطبة – مصر. والحديث في البخاري رقم: 18431 .

المطلب الأول

مصدر التلقي وأثره في المنشأ الفكري للغلو

مصدر التلقي: هو الذي يغذي العقل ويصيغ الفكر ويوجه التصور ، ويضبط التصرفات ، إذ إن لكل تصرف خلفية فكرية تُصيغ الأفكار، وتُحدد الأهداف والغايات ، وتُعد الوسائل وفقا لها.

فالإنسان يمتاز عن سائر الكائنات بأن تصرفاته الاختيارية يتولى قيادتها فكره ، وعلى هذا فإن السبب الرئيس للغلو وسلوك سبل العنف والإرهاب انحراف الفكر وضلاله، ينشأ عنه إلتباس الحق بالباطل لدى أصحاب هذا الاتجاه .

فالإنسان حتماً مقود بفكرة صحيحة أو فاسدة، **وإذا كان صمام أمان المسلم أن ينطلق من القرآن والسنة ، فإن الغالي يقع خارج هذه المرجعية سواء أدرك ذلك أم لم يدرك ، وفقا لواقع التصرفات القولية والعملية التي تحدد المرجعية التي ينطلق منها .**

فقد ينطلق وفق رؤية من اقتدى بهم ، واقتنع بمنهجهم ، وفي هذه الحالة تحول هؤلاء إلى مرجعية بديلة للقرآن والسنة، وقد ينطلق وفق رؤيته المحدودة ، وخصوصا إذا كان في بداية طلب العلم أو طلبه من قراءة كتيبات معدودة ، أو وقف على ظاهر النصوص في قراءة مبتورة مقطعة الأوصال ، تقوده إلى فهم مقلوب للنصوص لا ينظر في سياقها العام ، ومآلاتها المختلفة ، ووحدتها الموضوعية ، وعلى هذا يمكن أن يكون مصدر بناء فكره الآتي :

أولاً: المرجعية البشرية :

الأحبار، الرهبان، المشايخ الزعماء، القادة ،الأمراء، أينا كانت المسميات، في النهاية،فالبشر قاصروا الفهم ، واقعون في الخطأ، لديهم أهواء وشهوات تؤثر في اتخاذ المواقف، وتنزيل الأحكام قال تعالي:{ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}(١).

١ – سورة التوبة الآية :٣١ .

وقد ورد في حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: قلت: «يا رسول الله ما عبدوهم، قال: أحلوا لهم الحرام، فأطاعوهم ، وحرموا عليهم الحلال ، فأطاعوهم، فتلك عبادتهم إياهم » (١). فقد بلغ الغلو في النصارى مبلغا ، فاتخذوا المسيح وأمه إلهين من دون الله، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ،فغلوا في اعتقاداتهم وعباداتهم ،وشرعوا لهم مالم يأذن به الله كما قال تعالى:{ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ}(٢) .

يقول ابن كثير رحمه الله: " فينهى الله تعالى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء ، وهذا كثير في النصارى، فإنهم تجاوزوا الحد في عيسى حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها ، بل قد غلوا في أتباعه وأشياعه ممن زعم أنه على دينه فادعوا فيهم العصمة واتبعوهم في كل ما قالوه سواء كان حقا أو باطلا، أو ضلالا أو رشادا" (٣) .

ويقول سبحانه وتعالى مبينا سبب ضلال القوم وسبب هذا الغلو : { قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاء السَّبِيلِ }(٤). ومعنى الآية : أي لا تجاوزوا الحد في اتباع الحق، ولا تطروا من أمرتم بتعظيمه ، فتبالغوا فيه حتى تخرجوه عن حيز النبوة إلى مقام الإلهية . . وما ذاك إلا لاقتدائكم بشيوخكم شيوخ الضلال الذين هم سلفكم ممن ضل قديماً، وخرجوا عن طريق الاستقامة والاعتدال إلى طريق الغواية والضلال (٥) .

وسداً لباب تقديس البشر مهما أوتوا من التقى والصلاح، والعلم والفقه ، نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن المبالغة في المدح والثناء ، أو رفع الإنسان فوق منزلته، إذ لما جاءه وفد بني عامر قالوا له: أنت سيدنا، فقال:

---

١ – أخرجه الترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، باب ومن سورة التوبة، برقم (٣٠٩٥)، بلفظ قال فيه: "أتيت النبي –صلى الله عليه و سلم– وفي عنقي صليب من ذهب فقال: يا عدي اطرح عنك هذا الوثن، وسمعته يقرأ في سورة براءة {اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ} [سورة التوبة:٣١]، قال: ((أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئا حرموه))"، والبيهقي في السنن الكبرى، برقم (٢٠١٣٧)، والطبراني في المعجم الكبير برقم (٢١٨)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٣٢٩٣).

٢– سورة الحديد الآية: ٢٧ .

٣– ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٤٧٨/٢،دار طيبة سنة النشر: ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م .

٤– سورة المائدة الآية: ٧٧

٥–ابن كثير: المصدر السابق،٨٣/٢.

«السيد الله تبارك وتعالى ،قالوا: وأفضلنا فضلا وأعظمنا طولا، فقال: قولوا بقولكم، أو بعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان» (١) .

فحسم النبي صلى الله عليه وسلم الأمر، ونهاهم عن المبالغة في المديح، والتعظيم سدا لأبواب الشيطان وتلبيساته.

فتعظيم وتقديس من يقتدى بهم، تصل بالتابع إلى اتباع مطلق يصعب مخالفته، ولقد عد الإمام الشاطبي رحمه الله: التصميم على اتباع العوائد ،من أسباب الاختلاف والفرقة، وهذا هو التقليد المذموم الذي ذم الله عز وجل متبعيه: {بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثارِهِم مُّهْتَدُونَ} (٢) ثم قال : {أَوَلَوْ جِئْتُكم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءكمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كافِرُون} (٣) فنبههم على وجه الدليل الواضح، لكنهم استمسكوا بمجرد تقليد الآباء (٤) .

ويبين عمرو بن العاص رضي الله عنه صورة من صور هذا التقليد المذموم، الذي يصد عن اتباع الحق ، **ويقود إلى الغلو بعد أن سئل عن سبب إبطائه عن الإسلام ،رغم رجاحة عقله فقال له:** إنا كنا مع قوم لهم علينا تقدم (يعني أباه ومن هم في طبقته) وكانوا ممن نوازي حلومهم الجبال ، فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم فأنكروا عليه، قلدناهم، فلما ذهبوا وصار الأمر إلينا نظرنا وتدبرنا فإذا حق بين، فوقع في قلبي الإسلام (٥) .

وهذا التقليد المذموم والاتباع الأعمى مصدر للغلو، وباب يلج منه الغالي ، جر ويلات كثيرة على **الفرد نفسه ، سلبه عقله ، وأضاع شخصيته ، وجعله مجرد أداة لتصورات وأفهام الآخرين** ، وأوجب أنواعا من الفساد على **الأمة ، فمزق نسيجها الاجتماعي، وخالف بين قلوبها، واستحل الدماء والأموال والأعراض، بعد أن جر إلى التكفير والتفسيق والتبديع .**

---

١ – أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب في كراهية التمادح، رقم: ٤٨٠٦، قال الألباني في صحيح سنن أبي داود، ١٨٠/٣: صحيح، قال في عون المعبود، ١١٢/١٣، إِسْنَاده صَحِيح.

٢–سورة الزخرف الآية: ٢٢.

٣–سورة الزخرف الآية: ٢٤.

٤ – الشاطبي: الاعتصام ١٧٩/٢ ، دار النشر :المكتبة التجارية الكبرى – مصر .

٥ – المناوي: فيض القدير شرح الجامع الصغير ١٨/٧، المكتبة التجارية الكبرى ، مصر ،ط : الأولى١٣٥٦ه .

وليس طاعة البشر واتخاذهم منهجا قاصراً على اليهود والنصارى، بل من سلك نفس الطريق وقع في ما وقعوا "وكثير من أتباع المتعبدة يطيع بعض المعظمين عنده في كل ما يأمره به وإن تضمن تحليل حرام أو تحريم حلال" (١) .

وقد كان بعض الناس يناظر ابن عباس رضي الله عنهما في المتعة فقال له: قال أبو بكر وعمر، فقال ابن عباس: يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ،وتقولون :قال أبو بكر وعمر ، وكذلك ابن عمر لما سألوه عنها ، فأمر بها فعارضوا بقول عمر، فتبين لهم أن عمر لم يرد ما يقولونه، فألحوا عليه فقال لهم: أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أحق أن يتبع أم أمر عمر، مع علم الناس أن أبا بكر وعمر أعلم ممن هو فوق ابن عمر وابن عباس ولو فتح هذا الباب لوجب أن يعرض عن أمر الله ورسوله ،ويبقى كل امام في اتباعه بمنزلة النبي صلى الله عليه وسلم في أمته، وهذا تبديل للدين يشبه ما عاب الله به النصارى"(٢).

فالاغترار بالزعامات الدينية والدنيوية لمجرد الشكل والهيئة، وما تملك من صولة وجولة ، تقوم عند الجاهل مقام الدليل والبرهان ؛ تجعل من حاله تابعا مطيعا.

فمرجعية الغالي : بشر اقتنع بمنهجهم في التفكير، واتخذ فهمهم للنصوص دينا يتدين به ، وبناء على هذا الفهم والى وعادى وأحب وأبغض، واتخاذ سائر المواقف .

ثانيا: القراءة المبتورة للنصوص:

الفهم الظاهر لنصوص الكتاب والسنة دون مراعاة سياقها وترابطها ، والحكم على الأشياء من أول وهلة ،خصوصا مع قلة الفقه وضعف الادراك ، وعدم الرسوخ في العلم، يؤدي إلى غياب مقاصد التشريع، وغايات النص الشرعي في ذهن المستدل والمستنبط ، ذلك إن صحة فهم النصوص الشرعية ضابط لصوابية الاستدلال ، ولا يستطيع العالم أن يعرف مراد الله عز وجل، ومراد رسوله صلى الله عليه وسلم، إلا حينما

١- ابن تيمية : اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم ـــ٢ / ٩،تحقيق: ناصر عبد الكريم العقل، دار عالم الكتب، بيروت، لبنان،ط السابعة، ١٤١٩هـــ - ١٩٩٩م.

٢- ابن تيمية : المصدر السابق ،ـــ٢/ـــ٢١٥

يستقيم فهمه لدلائل الكتاب والسنة، وبذلك يصير من الخلف العدول، « ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين» (١) .

فعمق الفقه واستيعاب النصوص كليا وجزئيا ، وتنسيق قواعد الفهم لها بضوابطه وشروطه، وإشاعة طرائق الاستنباط السليم منها، وإدراك مقاصدها، وبيان مراميها، عاصم من الزلل والوقوع في الغلو ، ومن ذلك قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، في رسالته إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما: "ثم الفهم الفهم فيما أدلي إليك مما ورد عليك مما ليس في قرآن ولا سنة، ثم قايس الأمور عند ذلك، واعرف الأمثال، ثم اعمد فيما ترى إلى أحبها إلى الله، وأشبهها بالحق"(٢).

والفهم الرديء إذا انضم إليه القصد السيئ؛ قاد صاحبه إلى مهاوي الردى ، فحمل النصوص مالم تقله ،وحرفها عن مقصدها ،فادخل الانحراف والزيغ في التأويل ، بالإعراض عن محكماته وإتباع متشابهاته.

ولذلك كان حُسن الفهم عن الله ورسوله، أصل كل استقامة وهداية في الفكر والمنهج والسلوك في تاريخ الأمة، وسوء الفهم عن الله ورسوله، كان سبب كل انحراف وبدعة وضلالة نشأت في الإسلام، ومعظم الفرق الضالة، والطوائف الخارجة، والفئات المبتدعة، والجماعات المنحرفة من فرق الأمة، إنما أهلكها سوء الفهم أو سوء التأويل.

"فصحة الفهم وحسن القصد من أعظم نعم الله، التي أنعم بها على عبده، بل ما أُعطي عبد عطاء بعد الإسلام أفضل ولا أجل منهما، بل هما ساقا الإسلام، وقيامه عليهما، وبهما يأمن العبد طريق المغضوب عليهم الذين فسد قصدهم؛ وطريق الضالين الذين فسدت فُهُومُهم، ويصير من المنْعَمِ عليهم الذين حسنت أفهامهم وقصودهم، وهم أهل الصراط المستقيم الذين أمرنا أن نسأل الله أن يهدينا صراطهم في كل صلاة"(٣) .

ومن القراءة المبتورة للنصوص: الفصل بين النصوص الجزئية والمقاصد الكلية:

١ – رواه ابن جرير الطبري، وابن عدي في "الكامل" ١٥٢/١، والخطيب في "شرف أصحاب الحديث" ص ٤٠، ط.عالم الكتب بيروت، وابن عبد البر في التمهيد٥٩/١، وحسنه الحافظ العلائي بقوله: وهذا حديث حسن غريب صحيح، وقواه ابن القيم في "مفتاح دار السعادة"، ٤٩٧/١ لتعدد طرقه.

٢ – ابن القيم: إعلام الموقعين ١٣٠/١. بيروت، دار الكتب العلمية، بتحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. وهذا الأثر في: سنن الدار قطني ٢٠٦/٤-٢٠٧، و"سنن البيهقي الكبرى": ١١٥/١٠..

٣ – ابن القيم: المصدر السابق٨/١.

ذلك أن الاهتداء بالمقاصد في الاستنباط من النصوص الشرعية ؛ أساس لمن يريد حسن الفهم للنص الشرعي، وأن لا يكتفي بالوقوف عند حرفية وظاهر النصوص، ويجمد على منطوقها ، ولا يتأمل فيما وراء أحكامها من علل، وما تهدف إليه من مقاصد، وما تسعى إلى تحقيقه من مصالح ودرء مفاسد .

وقد اتفق علماء الأمة ، على أن الشريعة جاءت لتحقيق مصالح العباد، ودفع المفاسد عنهم في المعاش والمعاد، يقول الإمام الشاطبي: "إن وضع الشرائع إنما هو لمصالح العباد في العاجل والآجل معا" (١)،. ثم يؤكد ذلك بقوله: "وإذا دَلَّ الاستقراء على هذا، وكان في مثل هذه مفيدا للعلم، فنحن نقطع بأن الأمر مستمر في جميع تفاصيل الشريعة"(٢).

ولابن تيمية، وتلميذه ابن القيم، كلمات بليغة عما قرره الإمام الشاطبي، يقول ابن تيمية: "إن الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها؛ بحسب الإمكان، ومعرفة خير الخيرين وشر الشرين، حتى يُقَدَّمَ عند التزاحم خير الخيرين، ويُدْفَعَ شر الشرين"(٣).

وعَقَدَ ابن القيم فصلا في "إعلام الموقعين" في "تَغَيُّر الفتوى واختلافها بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيات والعوائد"؛ حيث قال: "هذا فصل عظيم النفع جدا، وقع بسبب الجهل به غلط عظيم في الشريعة، أوجب من الحرج والمشقة، وتكليف ما لا سبيل إليه، ما يعلم أن الشريعة الباهرة التي في أعلى رتب المصالح لا تأتي به؛ فإن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد، في المعاش والمعاد. وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها. فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث؛ فليست من الشريعة، وإن أدخلت فيها بالتأويل" (٤).

فهذا الكلام ينبغي أن يدركه الغلاة خصوصا من يزعمون أنهم سائرون على منهج السلف ولهم مقلدون ، ولكنهم لم يحملوا عنهم هذه الروح، وهذه البصيرة، التي تنظر إلى الشريعة هذه النظرة النَّسَقِيَّة والشاملة، وترى ذلك أساسا لتَغَيُّر الفتوى بتغير الزمان والمكان والإنسان، وَفْقا للعلل والحكم، والمصالح والمقاصد؛ التي راعاها الشارع عند تشريعه للحُكْم الكلي أو الجزئي(٥) .

---

١ – الشاطبي: الموافقات ، ٩/٢، دار النشر: دار المعرفة – بيروت، تحقيق: عبد الله دراز .

٢ – المصدر السابق، ١٣/٢.

٣ – ابن تيمية: منهاج السنة النبوية، ج ٦، ص ١١٨، تحقيق: الدكتور محمد رشاد سليم.

٤ – ابن القيم: المصدر السابق، ج:٣، ص١٤.

٥ – ينظر: يوسف القرضاوي ،المرجعية العليا للقرآن والسنة، ص٢٣٥.بتصرف .الناشر: مؤسسة الرسالة تاريخ الطبعة١٩٩٣م .

إن معرفة مقاصد التشريع ، وإدراك علل الأحكام تعين على الفهم ، وتبني الفكر المستنير الواعي لما يجري في محيطه، فيدرك غايات الشريعة ومقاصد الأحكام ، ويدرك فقه تنزيلها على الواقع والتعامل مع المخالف ، فيتصور النصوص الشرعية تصورا متكاملا، تجنبه الوقوع في أسر المسائل الجزئية والنصوص المبتورة، ولعل الغفلة عن هذا الباب ؛ أدت إلى بناء فكر مشوش أنتج تصورات مغلوطة، قادة إلى ظاهرية مفرطة، جردت النصوص من مقاصدها وحكمها وعللها، وجمدت على ألفاظها، وأفسدت تناسقها وتكاملها وترابطها.

ويترتب على هذه المرجعية بهذه الصورة ظهور الآتي:

٥ - اتباع الهوى وانتقائية التعامل مع النصوص الشرعية: قال تعالى: { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِعِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ }(١) . وإن كان يزعم أنه يحارب الهوى ويتمسك بالنصوص ، ويعيش بها ولها ، ولكنه في حقيقة الأمر يمسك بها ظاهرا وينقضها واقعا ، فيخلط الأصل بالفرع ، وينزل الظني محل القطعي ويقيم الفروع مقام الأصول.

فتنتقى النصوص حسب الهوى والمزاج ، والمصلحة والطبع ، فإذا حمل رأي معين سوق له الأدلة ، وتعامل مع ما يعارضه أو يكمله أو يفسره بالنسخ والتأويل .

٦ - ادعاء التميز على الغير: فيدعي التميز في العمل ، قال تعالى مبينا لحالهم : {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ} (٢) فيزعم أنه يصلح ، وإن سفك الدماء، وهتك الأعراض، ونهب الأموال ، فيبحث عن المسوغات الشرعية ، وفق الانتقائية السابقة ، وفهم من يقتدي بهم .

ويدعي التميز في الفهم والادراك ، كما قال تعالى عن هذا الصنف: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آَمِنُوا كَمَا آَمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آَمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ) (٣) .

كما يدعي التميز في العرق ، قال تعالى :{ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ }(٤)..فمناهج البشر وفهمهم القاصر قد توصل مجموعه من الناس إلى العلو في الأرض ، وادعاء تميز العرق أو اللون وإن لم يصرح بها صاحبه ، كمن يدعي أن النسب الفلاني هو الأقرب ، والحق يدور معه حيث دار.

٧ - النظرة الأحادية ومحاولة فرضها على الآخرين: فحصر التصور وانغلاق التفكير، و التترس وراء رأي معين ، أو قول محدود ، أو فهم ما ، يترتب عليه :

---

١ -سورة الحج الآية:٨ .

٢ -سورة البقرة الآية:١١ .

٣ - سورة البقرة الآية:١٣.

٤ -سورة الشعراء الآية:١١١.

أ - إلزام الغير بما لم يلزهم الشرع به : كإلزام النفس والآخرين بما لم يلزمهم الله - سبحانه وتعالى – به، ، مثل تحريم الطيبات، أو الزام النفس بعبادات لم يوجبها الشرع، أو نقل السنن إلى مصاف الواجبات، وليت الأمر يقف عند نفسه ، بل يحاول جاهداً إلزام غيره باستخدام كافة الوسائل، بما فيها التبديع والتفسيق و التكفير . ومما وصُف به الرسول صلى الله عليه وسلم قبل بعثته حمله منهج الوسطية ، والنظرة الشاملة في الأمر والنهي والمأكل والمشرب، قال تعالى:{ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} (١).

ب -عدم الاعتراف بالرأي الآخر، أو بحق الغير في التفكير والنظر المختلف : فيجيز لنفسه الاجتهاد ويحتكر هذا الحق لنفسه ، فيذم المخالف ويبدعه ويفسقه ، وغالبا قد يكون مبتدئا في طلب العلم أو مقلدا ناقلا ليس أكثر، فهذا التعصب المقيت، والغلو الجافي، يقول بلسان حال بل مقاله : من حقي أن أتكلم ومن واجبك أن تتبع ، رأيي ديني يجب أن يتبع ،ورأيك وفهمك واجتهادك ضلال وانحراف وفسق وكفر، وبهذا لا يمكن أن يلتقي بغيره ، فلا يدع شعرة للالتقاء إلا قطعها، ولا يدا ممدودة إلا كسرها.

المطلب الثاني

العوامل المؤثرة في المنشأ الفكري للغلو

تساهم مجموعة من العوامل في المنشأ الفكري للغلو يكتسبها الفرد في حياته، والتي بدورها تتحول إلى تصورات ذهنية تترجم إلى سلوك في الحياة اليومية.

واذا كان مصدر التلقي من خلاله يصاغ الفكر، ويوجه التصورات، فهناك عوامل تؤثر في عملية البناء الفكري، وقد تشوه معالمها أو تحسنها، وتساهم في بنائها، ومن هذه العوامل، الأسرة، والأصدقاء، والمدرسة، وكل الأماكن التي يتلقى فيها الإنسان المعرفة، ويكتسب فيها قيمة، أو تترسخ فيه عادة ،كلها تسهم في بناء تفكيره وتحديد أنماط سلوكه ، وتوجيه تصرفاته في الحياة سلبا وايجابا، ولعل أبرز هذه العوامل ما يلي:

أولا: البيئة الاجتماعية:

١-سورة الأعراف الآية:١٥٧ .

للبيئة الاجتماعية تأثيرها في بناء الفكر، وصياغة طرائق التفكير، وتوجيه التصرف لما لها من ملازمة دائمة لحياة الإنسان من مولده إلى مماته ، فكلما كانت البيئة سليمة، أنتجت شخصا سويا في الفكر والتصور، والعكس البيئات الملوثة فكريا، أو اخلاقيا أو عقائديا، تنتج فردا منحرف الفكر، منحرف السلوك ، وتشمل البيئة الاجتماعية الآتي:

أ -البيت والأسرة: تمارس الأسرة تأثيرا كبيرا على حياة الفرد، وتوجهاته، وخياراته، وقراراته، وبالتالي على تكوينه الفكري والعقائد، قال صلى الله عليه وسلم : « مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلاَّ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ » (١).

فالفرد الذي يتربى في بيت مضطرب تسوده المشاكل، ويعزز فيه الرأي الواحد، بل ويفرض على الآخرين في كل صغيرة وكبيرة ، يؤثر سلبا على تصرفات الأبناء، ويبني فيهم روح التسلط.

فإذا كانت العلاقات تبنى داخل البيت في إطار سلسلة مترابطة من علاقات التسلط، والرضوخ ، بين الأب والأبناء ، الأخوة والأخوات ، الكبير والصغير ، فإنها تؤثر سلبا في عملية البناء الفكري، والنظر إلى القضايا المختلفة .

فتعمل القيم والتوجهات، وأنماط السلوك السلبية التي يتلقاها الفرد منذ نعومة أظفاره على عرقلة بناء الفكر ، واستقلالية الرأي من خلال انعدام روح الحوار، والنقاش الموضوعي، وتقبل الآراء المخالفة، واحترامها في العلاقات الاجتماعية ، والسياسية والقضايا الفقهية .

فنجد الفرد يضيق صدره بالحوار والنقاش، ولا يحترم الآراء المخالفة ، ولا يتقبل النقد، وتصبح العلاقة: هي علاقة رضوخ، وتقبل لأوامر ونواهي من هم أعلى منه ، وعلاقة تسلط وسيطرة على من هم أدنى منه .

إن أسلوب التربية في البيت يضع الأسس الأولى لشخصية الإنسان وقيمه ، وسلوكياته التي تشكل في ما بعد طرائق تفكيره وتعامله مع القضايا المختلفة، وتنعكس في هذه الثقافة كل علاقات التسلط والرضوخ وأنماط الإذعان والاتكالية والعجز التي يتلقاها الإنسان في البيت.

١ – صحيح البخاري كتاب: الجنائز، باب: إذا أسلم الصبي فمات، هل يصلى عليه. ٩٤/٢. برقم: ١٣٥٨، وصحيح مسلم كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين٤ /٢٠٤٦ برقم: ٢٦٥٨.

ب. الجلساء والأصدقاء: قال تعالى:{وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً }(١) .

ويبين النبي صلى الله عليه وسلم تأثير الجلساء على سلوك الإنسان بقوله: « إِنَّمَا مَثَلُ الجليس الصالحُ والجليسُ السوءِ كحامِلِ المسك، ونافخِ الكِيْرِ فحاملُ المسك: إما أن يُحْذِيَكَ، وإما أن تبتاع منه، وإمَّا أن تجِدَ منه ريحا طيِّبة، ونافخُ الكير: إما أن يَحرقَ ثِيَابَكَ، وإما أن تجد منه ريحا خبيثَة » (٢).

ثانيا: البيئة التعليمية : من خلال استقراء الواقع والأحداث التي نعايشها ، نجد أن البيئة التعليمية لها أثرها البارز في غرس القيم ، والدور المحوري في بناء الفكر، ولمزيد من التوضيح يمكن أن تشمل الآتي:

أ - المدارس العلمية التي يتلقى منها : فالمدرسة متعددة الأعراق والألوان والأفكار ، التي ينشأ فيها الطالب غير المدرسة التي تضم عرقا أو فكرا معينا ، فالعيش في التنوع من البداية يورث قبولا في مراحل الحياة المختلفة.والعكس فالمدارس المحصور أصحابها سواء عرقا أو فكرا أو لونا، ينشأ جيل حاقد أو غالى ضد الفئات المختلفة في المجتمع لشعوره بالضيم أو التميز .

ب - الشيوخ والاساتذة :فتؤثر طبيعة صفاتهم وتعاملهم في بناء الفكر سلبا وإيجابا ، فالشيخ أو الأستاذ الذي أحاط نفسه بهالة التقديس ، فلا يمكن أن يُناقش، أو يُحاور، أو يُرد عليه ، يتحول مع مرور الزمن في ذهنية الطالب إلى مرجعية لا يمكن أن تخطأ ، فينشأ مقلدا لها متعبدا لأقواله، وأفعاله ذاما للمخالفين له .

ج - طريقة التلقي : فمن يسمع فقط غير من يناقش ويحاور، وكذا في طريقة التلقي الأسلوب والمنهج، كالتعبئة العاطفية بالحديث المركز عن الجهاد وفضائله ،وعن الشهادة ومآلها ، وعن شيوع المنكرات والمظالم في المجتمعات الإسلامية ، وعن مكائد الأعداء وظلمهم للمسلمين ، وإن كان مبنيا على الأدلة لكن بدون الضوابط الشرعية، وقلة العلم وغياب التوازن، سيؤدي حتما إلى إيقاد جذوة الحماسة ، ويدفع نحو البذل والتضحية ، ويعزز قيم الانتقام ، بل ينظر إلى المجتمع من حوله وإن كان أباه وأمه مجتمع منحرف فاسق ضال ، وذلك للبرمجة الفكرية التي تلقاها، والتصور الذي صيغ وفقا له .

١- سورة الكهف الآية: ٢٨.

٢- أخرجه البخاري، باب المسك (٩٦/٧)، رقم: (٥٥٣٤)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب مجالسة الصالحين، ومجانبة قرناء السوء (٢٠٢٦/٤)، رقم: (٢٦٢٨)

ومن الأمور المهمة في طريقة التلقي ، المنهج الذي يُدرس ، فمن يدرس وفق نظرية أو منهج واحد، بعكس من يتعرف على النظريات المختلفة، والمناهج المتعددة، ومن هنا ندرك المنهج القرآني في بناء الفكر في عرضه للقضايا العقدية والفكرية، وعرضه لتصورات الآخرين، ومنهجهم فيها، ثم الاستدلال على المنهجية السوية، والطريق المستقيم ، فمعرفة الطرق المختلفة، والطرق المتعددة، تبني الفكر الذي يقبل بالتنوع ويتعايش معه .

المبحث الثالث

أسس بناء الفكر وأثرها في معالجة الغلو

الاستناد إلى مرجعية في الأقوال والأفعال من الأمور البديهة في الحياة ، وأي مشكلة تنشأ بين الناس، فالبحث عن حل لها يرجع إلى مرجعية للحل إما عرفية أو شرعية أو قانونية ، وإذا أردنا أن نناقش قضية بناء الفكر الذي هو أساس بناء الآراء ومرجعيتها وضبطها أو تسيبها، فإننا لا بد أن نرجع إلى المرجعية الصافية القرآن والسنة ،وعند التأمل نجد، أن القرآن الكريم وضع الأسس والقواعد لبناء التفكير الإنساني إخراجا للمكلف من دائرة الهوى والتقليد ، إلى رحابة التأمل والنظر، ولعلنا نجمل هذه الأسس في المطلبين التاليين :

المطلب الأول

ضبط مصدر التلقي وأثره في معالجة الغلو

أول انحرافٍ عن المنهج الصافي الوسطي واجهته الأمة ، ظهور الخوارج ، تلك الفئة التي كفرت الصحابة اعتمادا على قراءة انتقائية للقرآن الكريم ، فكفرت علياً رضي الله عنه ، وزعمَتْ أنه لا يحكم بما أنزل الله في كتابه، حتَّى قام إليهم عبدُالله بن عبَّاس - رضي الله عنهما - يُجادِلُهم بالحُسنى ويُناظِرهم؛ لعلَّهم يرجعون، فعاد فريقٌ، وضلَّ آخرون(١).

فقد استدلوا على غلوهم بآيات من القرآن الكريم ، بقراءة مبتورة وفهم قاصر، وأخذهم ببعض الآيات دون بعض، وببعض النصوص دون بعضها الآخر ، فالعيب ليس في المصدر الذي انطلقوا منه في استدلالهم ،بل في ضعف إدراكهم لنصوص الشرع ، وهوى دخل النفوس من باب التدين والغيرة على الشريعة.

١- ينظر: الحاكم : المستدرك على الصحيحين ، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١١هـ - ١٩٩٠م ، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا،(٢\ ١٥٠ ــ ١٥٢).

فضعف الفهم، وقصور الإدراك، قد توهم البعض، بأن القرآن الكريم قد يكون سببا للاختلاف والتنازع، والله أنزل القرآن الكريم حكما بين الناس فيما يختلفون فيه {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا } (١) والحَكم لا بد أن تكون حجته ظاهره، ودلالته محكمه ، أما إذا تناقضت أقواله، ولا يمكن الجمع بينها، فكيف يمكن أن يكون حكما .

وهكذا بدلا من أن يحكم القرآن بين الناس فيما اختلفوا فيه، يختلف الناس في فهم القرآن، وينشأ عن ذلك فرقة وخصام ومذاهب واتجاهات، على حين نجد القرآن يأمرنا بالاعتصام بحبل الله، وينهانا عن التفرق قال تعالى:{ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا}(٢) .

وقد بين لنا القرآن الكريم بأنه{لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ}(٣) وكونه من عند الله يقتضي عدم وجود الاختلاف فيه{أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا}(٤) فدل ذلك على أن الاختلاف فيه لا يرجع إليه ،وإنما يرجع إلى فهم الناس ، وخلفياتهم التي نشأوا فيها، وبُعدهم عن منهج الاستدلال الذي وجه القرآن الكريم العقول والقلوب إليه، ولضبط مصدر التلقي ، والوصول إلى بناء الفكر السليم يتطلب الآتي:

١ -إدراك التناسب والتناسق بين السابق واللاحق ،وما نزل أولا وما نزل آخرا ، ومراعاة أسباب النزول ، ودلالات الآيات في مواضعها المختلفة، وبهذا تظهر الوحدة الموضوعية للقرآن الكريم ، فتظهر تسلسل المعاني وتناسقها ،فالذي قال:{ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ} (٥) هو الذي قال: { لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ} (٦) وقال: { وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا} (٧).

٢ -القرآن الكريم يفسر بعضه بعضا، فلا يحمل على الحيرة أو الشك ، فما أجمل في مكان فسر في آخر، بل دلالات الآيات تخرج من الحيرة والارتباك، فهذا ابن عباس رضي الله عنه يستدل على الخوارج يوم أن نقموا

١- سورة المائدة الآية : ٤٨.
٢- سورة آل عمران الآية : ١٠٣ .
٣- سورة فصلت الآية : ٤٢.
٤- سورة النساء الآية:٨٢.
٥- سورة الأنفال الآية:٣٩.
٦- سورة البقرة الآية:٢٥٦.
٧- سورة الأنفال الآية:٦١.

على علي رضي الله عنه بأنه حكم الرجال والله يقول:{إن الحكم إلا لله } كما ستأتي قصتهم ، ومثل هذا المنهج لا يمكن الوصول من خلاله إلى نتائج حاسمة إلا إذا تعاملنا مع القرآن الكريم على محمل الجد ،بعيداً عن الهوى والتقليد ، والمزاجية والانتقاء ، وهو يتطلب بُعداً في النظر، وعمقاً في الفهم ، وإدراكاً لمقاصد الشريعة وحكمها، بعيداً عن التكلف والتعسف ، وتصحيحاً للأخطاء ،والتصرفات المتوارثة، وانطلاقاً إلى بناء فكر نير بنور القرآن الكريم، ومنهجه في غرس منهج الوسطية.

٣ -حسن الفهم والإدراك: مدح الله -سبحانه وتعالى -من يحسنون الفهم بقوله :{الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ} (١) فرغم تعدد الأقوال وتنوعها إلا أنهم يأخذون أحسنها فيسيرون عليها ، فحسن الفهم يأتي من عملية استيعاب النصوص الشرعية ، وإدراك مقاصد التشريع. ومن هنا نجد التحذير من سوء الفهم والوقوع في الهوى قال تعالى:{ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ}(٢)وعن عائشة رضي الله عنها: « أنّ النّبيّ صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية ،فقال :إذا رأيتم الذين يتّبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمّى الله فاحذروهم. » (٣).

ومن سوء الفهم ما حصل للخوارج الذين خرجوا على عليٍّ رضي الله عنه وقاتلوه، فقد فهموا النصوصَ الشرعية فهمًا خاطئًا ، وأخذوا منها ما يوافق أهوائهم ورغباتهم ويحقق أطماعهم ، ولهذا لَمّا ناظرهم ابن عباس رضي الله عنهما بيّن لهم الفهمَ الصحيح للنصوص، فرجع مَن رجع منهم، وبقي من لم يرجع على ضلاله، وقصّة مناظرته لهم في مستدرك الحاكم(٤)،وفيها قول ابن عباس رضي الله عنهما: " أتيتُكم من عند صحابة النّبيّ صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والأنصار، لأبلّغكم ما يقولون، المخبرون بما يقولون، فعليهم نزل القرآن، وهم أعلمُ بالوحي منكم، وفيهم أنزل، وليس فيكم منهم أحد، فقال بعضُهم: لا تخاصموا قريشًا، فإنّ الله يقول:{ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ} (٥).

١- سورة الزمر الآية:١٨.

٢- سورة آل عمران الآية: ٧ .

٣ - أخرجه البخاري في كتاب التفسير - باب تفسير سورة آل عمران (٤٢٧٣) (ج ٤ / ص ١٦٥٥) ومسلم في كتاب العلم - باب النهي عن اتباع متشابه القرآن والتحذير من متبعيه والنهي عن الاختلاف في القرآن (٢٦٦٥) (ج ٤ / ص ٢٠٥٣).

٤- الحاكم: المصدر السابق (١٥٠\٢ ــ ١٥٢) بإسناد صحيح على شرط مسلم.

٥- سورة الزخرف الآية: ٥٨.

قال ابن عباس: وأتيتُ قومًا لم أرَ قومًا قطُّ أشدّ اجتهادًا منهم، مسهمة وجوههم من السّهر، كأنّ أيديهم وركبهم تثنى عليهم، فمضى من حضر، فقال بعضُهم: لنكلِّمنّه ولننظرنّ ما يقول، قلت: أخبروني ماذا نقمتم على ابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وصهره والمهاجرين والأنصار؟ قالوا: ثلاثًا، قلت: ما هنّ؟ قالوا: أمّا إحداهنّ فإنّه حكم الرّجالَ في أمر الله، وقال الله تعالى: { إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ}(١)، وما للرّجال وما للحكم، فقلت: هذه واحدة، قالوا: وأمّا الأخرى فإنّه قاتَلَ ولَم يسْب ولَم يغنَم، فلئن كان الذي قاتل كفّارًا لقد حلّ سبيُهم وغنيمتهم، ولئن كانوا مؤمنين ما حلّ قتالُهم، قلت: هذه ثنتان، فما الثالثة؟ قال: إنّه مَحا نفسَه من أمير المؤمنين، فهو أمير الكافرين، قلت: أعندكم سوى هذا؟ قالوا: حسبنا هذا، فقلت لهم: أرأيتم إن قرأت عليكم من كتاب الله ومن سنّة نبيّه صلى الله عليه وسلم ما يُردُّ به قولُكم أتَرضَون؟ قالوا: نعم! فقلت: أمّا قولكم: حكَّم الرّجال في أمر الله، فأنا أقرأ عليكم ما قد رُدّ حكمُه إلى الرّجال في ثمن ربع درهم، في أرنب ونحوها من الصيد، فقال:{ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ }(٢) إلى قوله: {يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ }(٣)، فنشدتكم الله: أحُكم الرّجال في أرنب ونحوها من الصيد أفضل، أم حكمهم في دمائهم وصلاح ذات بينهم؟! وأن تعلموا أنّ الله لو شاء لَحكَم ولَم يُصيّر ذلك إلى الرّجال، وفي المرأة وزوجها قال الله عزّ وجلّ: { وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا}(٤)، فجعل الله حكم الرّجال سنة مأمونة، أخَرَجتُ من هذه؟ قالوا: نعم! قال: وأمّا قولكم: قاتَل ولم يسْب ولم يغنم، أتَسبُون أمّكم عائشة، ثمّ تستحلُّون منها ما يُستحلُّ من غيرها؟! فلئن فعلتم لقد كفرتُم، وهي أمُّكم، ولئن قلتُم: ليست أمّنا لقد كفرتُم؛ فإنّ الله يقول:{ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ }(٥)، فأنتم تدورون بين ضلالَتين، أيّهما صرتُم إليها صرتُم إلى ضلالة.

فنظر بعضُهم إلى بعض، قلت: أخرجتُ من هذه؟ قالوا: نعم! وأمّا قولكم: مَحا اسمَه من أمير المؤمنين، فأنا آتيكم بمَن ترضَون وأريكم، قد سمعتُم أنّ النّبيّ صلى الله عليه وسلم يوم الحُديبية كاتَبَ سُهيل بن عمرو وأبا سفيان بن حرب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمير المؤمنين: اكتب يا علي: هذا ما اصطلح عليه

١- سورة الأنعام الآية: ٥٧.
٢- سورة المائدة الآية: ٩٥.
٣- سورة المائدة الآية: ٩٥ .
٤- سورة النساء الآية: ٣٥.
٥- سورة الأحزاب الآية: ٦.

محمد رسول الله ، فقال المشركون: لا والله! لو نعلم أنّك رسول الله ما قاتلناك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللّهم إنّك تعلمُ أنّي رسول الله، اكتب يا علي: هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبد الله ، فوالله لرسول الله خيرٌ من علي، وما أخرجه من النبوة حين محا نفسَه، قال عبد الله بن عباس: فرجع من القوم ألفان وقُتل سائرُهم على ضلالة .

ولبناء هذه الخاصية في فكر المسلم، أقام القرآن الكريم المنهج على أساس الفقه وحسن الفهم ، عن طريق الاستلال العقلي وفتح باب النظر في المالات ، وهذا يستدعي من أهل العلم والفقه والمعنيين بالتعليم الاهتمام ببناء منهج التفكير ،وتوجيه الشباب إلى التأمل والتفكر وحسن الفهم ، وبيان ما يلزم تبيانه ، والرجوع إلى أهل العلم والذكر كما قال تعالى: { فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ }(١)، ومِمّا يدلُّ على أنّ الرجوع إلى أهل العلم خيرٌ للمسلمين في أمور دينهم ودنياهم ما رواه مسلم(٢)عن يزيد الفقير(٣) قال: " كنتُ قد شَغَفَنِي(٤) رأيٌ من رأي الخوارج، فخرجنا في عِصابةٍ ذوي عدد نريد أن نحجّ، ثمّ نخرجَ على الناس، قال: فمررنا على المدينة فإذا جابر بن عبد الله يُحدِّث القومَ . جالسٌ إلى ساريةٍ . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فإذا هو قد ذكر الجهنّميّين، قال: فقلتُ له: يا صاحبَ رسول الله! ما هذا الذي تُحدِّثون؟ والله يقول:{إِنّكَ مَنْ تُدْخِلِ النّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ}(٥)، و { كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا}(٦)، فما هذا الذي تقولون؟ قال: فقال: أتقرأُ القرآنَ؟ قلتُ: نعم! قال: فهل سمعت بمقام محمد عليه السلام، يعني الذي يبعثه فيه؟ قلتُ: نعم! قال: فإنّه مقام محمد صلى الله عليه وسلم المحمود الذي يُخرج اللهُ به مَن يُخرج. قال: ثمّ نعتَ وضعَ الصِّراط ومرّ الناس عليه، قال: وأخاف أن لا أكون أحفظ ذاك.قال: غير أنّه قد زعم أنّ قومًا يَخرجون من النار بعد أن يكونوا فيها، قال: يعني فيخرجون كأنّهم عيدان السماسم(٧)، قال: فيدخلون نهرًا من أنهار الجنّة فيغتسلون

١- سورة النحل الآية:٤٣.

٢- في صحيحه مع شرح النووي ج١ص٣٣٦ . بيروت، دار الفكر١٩٨٠م .

٣- هو يزيد بن صهيب، أبو عثمان الكوفي، المعروف بالفقير ، الطبقة: ٤ ، طبقة تلي الوسطى من التابعين، رتبته عند ابن حجر: ثقة ، ورتبته عند الذهبي: ثقة، حجر ،تقريب التهذيب، دار الرشيد – سوريا الطبعة الأولى ، ١٤٠٦ه – ١٩٨٦م.

٤- شَغَفَنِي : لَصِقَ بِشِغَافِ قَلْبِي ، وَهُوَ غِلَافُه. النووي :المصدر السابق.

٥- سورة آل عمران الآية: ١٩٢.

٦- سورة السجدة الآية :٢٠.

٧- بالسينين المهملتين : الأولى مفتوحة ، والثانية مكسورة ، وهو جمع سمسم ، وهو عود أسود، شبههم به في سواده . ينظر:النووي: المصدر السابق . كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها ٤١٥/١.

فيه، فيخرجون كأنّهم القراطيس.فرجعنا، قلنا: وَيْحَكم! أَتَروْنَ الشيخَ يَكذِبُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟! فرجعنا، فلا . والله!. ما خرج منّا غيرُ رَجل واحد".

فالفكر الذي بُني على الاتجاه الظاهري في فهم النصوص يحملها مالا تحتمل ،فتنحرف لديه المفاهيم وتختلط عليه النصوص ، فيجانب الحق ويقع فيما نهى الله عنه .

المطلب الثاني

التزود المستمر بالمعرفة وأثره في معالجة الغلو

فالإنسان عدو ما يجهل ، خُلق وهو لا يعلم شيئا قال تعالى:{ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}(١)، وعليه كي لا يضل ، أن يتزود من المعرفة بصفة مستمرة، كما أمر الله -سبحانه وتعالى -نبيه بطلب العلم والتزود الدائم بالمعرفة{ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا}(٢).ولا عجب أن أول آية نزلت استهدفت بناء الفكر ،وإيجاد بيئة التعلم ونشر المعرفة قال الله تعالى :{قْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}(٣).

هذه الآيات هي أوَّل ما نزل من القرآن الكريم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والملفت للانتباه أنها تأمره أوَّل ما تأمره بالقراءة، فماذا يعني أن تضمَّ الآيات الخمس الأولى ستَّ عبارات تتعلق بالقراءة والكتابة، والعلم والتعليم؟ إن هذه الآيات تشكِّل افتتاحيَّة وحي السماء، وهذا يعني أن أهمَّ ما جاء الإسلام لتحقيقه، هو نشر العلم وبناء المعرفة ،فهو طريق العبادة ووسيلة الاستخلاف ، وبه يتجنب الوقوع في الغلو.

فكلمة {اقرأ} بكلِّ ما فيها من إيحاء إلى طَرْقِ أبواب العلم والمعرفة، بفعل الأمر الذي يدل على قيام المأمور به دون الاتكال على الآخرين ، ثمَّ أُتبعت هذه الدعوة إلى القراءة، بدعوة إلى أختها، وهي الكتابة بالقلم، قال تعالى، {الَّذي علَّمَ بالقلم} تنبيهاً وإشارة إلى بناء الأفكار واخراجها من عبودية غير الله ، وإقامة الحق والعدل في الأرض لن يكون بغير العلم ، وعماد العلم القراءة والكتابة.

١- سورة النحل الآية:٧٨.

٢- سورة طه الآية:١١٤.

٣- سورة العلق الايات:١-٦.

وإذا كانت المعرفة باب واسع، فمهما أوتي الإنسان سيظل قاصراً، قال تعالى:{وما أوتيتم من العلم إلا قليلا }(١) وقال تعالى: {وفوق كل ذي علم عليم }(٢) وفي قصة موسى والخضر عليهما السلام ، عبرة فقد أظهرت غياب الأسباب عن موسى عليه السلام ، ردود أفعال تنكر الفعل والفاعل ، فلما تبين له ، أدرك حكمة الله في خلقه. كثير هم من يتوهم أنه حاز العلم وتمكن من المعرفة من كل جوانبها ، ولم يدرك بأنه لم يؤت إلا القليل بل أقل من القليل .

فالتعلم المستمر يُنور الفكر ويبنيه ، ويُنشأ البيئة الإيجابية للتعامل مع المخالف ، ولا يقف المتعلم عند حدود ضيقة ، أو سطحية مفرطة ، بل كل يوم وهو يَسبُر المعرفة ، ويغور في ميادين العلوم المختلفة، ليجني ثمارها فكراً معتدلا ومنهجا صائباً.

وللسعي نحو بناء الفكر الوسطي لا بد من الآتي :

١ -البدء بتعلم الأهم فالمهم : فالواجبات قبل غيرها ، والأصول قبل الفروع ، فلا يصح "تعاطي الفضل إلا بعد العدل، فإن العدل فعل ما يجب والفضل الزيادة على ما يجب، وكيف يصح تصور الزيادة على شيء هو غير حاصل في ذاته؟ ولهذا قيل لا يستطيع الوصول من ضَيَّع الأصول.. فمن شَغَلَهُ الفرض عن الفضل فمعذور، ومن شغله الفضل عن الفرض فمغرور" (٣) فسلوك المتعلم هذا المنهج لا شك أنه سيثمر الآتي:

أ - الفقه بمراتب هذه الأعمال، وبالقطعي منها من الظني، وبالأصل منها من الجزء، وبالكبير منها من الصغير ، والمتفق منها والمختلف .

ب- فهم تنزيل الأحكام والتعامل مع المستجدات من الوقائع والأحداث، من خلال فهم قواعد الترجيح وتقديم الأولويات .

ج - العناية بالمقاصد والغايات : فلا يصرف الاهتمام والجدل إلى الأمور الخلافية التي لم تحسم ولن تحسم ، ويترك التعاون على المتفق عليه.

إن اهتمام وسائل التعلم المختلفة ببناء الفكر تدريجيا ، من خلال الأهم فالمهم يسد الثغرات الفكرية والمنهجية ويعالج الآفات التربوية والسلوكية التي عانى و ما زال يعاني منها المسلمون في الفكر والسلوك ، حيث غلب

١- سورة الإسراء الآية:٨٥.

٢- سورة يوسف الآية:٧٦.

٣- الراغب الأصفهاني : الذريعة في مكارم الشريعة١/٨٥ ،تحقيق :د: أبو يزيد العجمي ،دار السلام ، القاهرة ٢٠٠٧م.

على كثير من الناس الإغراق في الجزئيات على حساب الكليات، والولع بتلك الفرعيات على حساب المعضلات.

٢ - عدم الخوض في التحريم والتحليل إلا بدليل ومعرفة بواقع المكلف : قال تعالى :{قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}(١) ، وتحريم الحلال على الناس مثل تحليل الحرام إن لم يكن أشد، قال تعالى:{قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آَللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ}(٢) ، فالخوض في كل مسألة، وإطلاق الأحكام الشرعية، وتوصيف الوقائع يحتاج إلى رسوخ واستيعاب لمجريات الأحوال الزمانية والمكانية والشخصية .

فتوسيع دائرة الفتيا لتشمل مَنْ لم يتأهل لها؛ يوقع المجتمع في الفوضى الفكرية في مواجهة سيل من الفتاوى والأحكام، فليس كل مَنْ فُتِحَ عليه في باب الخطابة أو في باب المواعظ، أو أي باب من الأبواب ، يكون مؤهلا للإفتاء ولاسيما في النوازل، وتدافع الصحابة للفتيا وإحالتهم السائلين بعضهم إلى بعض معروف، مع علمهم وتأهلهم للفتوى، فكيف بمَنْ يقول على الله بغير علم ؟! والرسول – عليه الصلاة والسلام – حين سأله جبريل: «متى الساعة؟» قال: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل»(٣) .

بل إن القرآن الكريم يوجه النبي صلى الله عليه وسلم أن لا يجيب عن كل شيء{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} (٤).

٣ -ملازمة أهل العلم الراسخين فيه، فليس كل من كور عمامة، أو أطلق لحية، أو حفظ متنا أو سندا، يقتدى به، ويكتفى أثره، ويقلد قوله ، إذ أن الحق محور الدليل وفقهه ، لا الشخص أين كانت منزلته ، والله تعالى يقول: {فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}(٥) .

١- سورة الأعراف: الآية ٣٣.

٢- سورة يونس: الآية ٥٩.

٣- مسلم في صحيحه: المصدر السابق ١/ ٣٦ .

٤- سورة الاسراء الآية:٨٥

٥- سورة النحل: الآية ٤٣.

٤ -ربط التصرف تجاه الاشياء بالمعرفة : فالإنسان معرفته تعتمد على الحواس أو الوهم والخيال، والحواس محدودة القدرة ومن هنا جاء ضبط التصرفات { وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا }(١).

وحذر الناس من الخوض في التحريم والتحليل بمجرد وصف الألسن ، فقال تعالى: {وَلاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ}(٢) ، فقلة البضاعة العلمية، وعدم الفقه فيما يحمله، يؤدي إلى الغلو؛ الذي ينشأ من عدم القدرة على ربط الجزئيات بالكليات، ورد المتشابه إلى المحكم، وضعف القدرة على التحقيق في الخلاف، ومع ذلك يظن نفسه من أهل العلم والاجتهاد، وهو لم يبلغ تلك الدرجة، فإن العلم بظواهر النصوص الشرعية دون عللها ومقاصدها لا يكفي لإصدار الأحكام، واستباحة دماء الناس، وأعراضهم، وأموالهم ، ووصفهم بالبدعة والفسق، والكفر.

ولذا لا بد من المعرفة الشاملة والمستمرة لبناء الفكر السوي ، فالتعليم: " هو الحامض الذي يذيب شخصية الكائن الحي ثم يكونها كما يشاء ، وهو يستطيع أن يحول جبلا شامخا إلى كومة تراب " (٣) .

ومن هنا ندرك أهمية سعة المعرفة ، والتزود الدائم بها ، والحرص على طلبها في كل وقت ، لنجني ثمارها ونلمس آثارها من خلال مايلي:

١ - سعة الأفق: فينظر إلى القضايا من حوله بإدراك ومسئولية ، فيدرك تبعاتها ومالات الأفعال، لأنه عرف قيمته ، وكلما ازداد معرفة ازداد بعدا في النظر، وعمقا في المقاصد والغايات (وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ .....) (٤).

فسعة المعرفة لا توقف صاحبها عند ظاهر النص وحروف الألفاظ ، بل ينفذ إلى معانيها ومراميها قال ابن القيم رحمه الله: " رب شخص يفهم من النص حكما أو حكمين ، ويفهم منه الآخر مائة أو مائتين " (٥) .

١- سورة الاسراء الآية:٣٦.

٢- سورة النحل الآية: ١١٦.

٣- أبو الحسن الندوي : الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ص١٦٩ والمقولة لمحمد إقبال رحمهم الله جميعا .

٤- سورة آل عمران الآية:٧.

٥ -ابن القيم : مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والارادة ،٦٠/١،بيروت دار الكتب العلمية ط١٩٩٤ .

٢ - النضج في التفكير ، والنظرة الكلية ، وهذا بالتأكيد يجعل الإنسان يعذر المخالف، ويعتذر للمخطئ، ويعطف على المقصر، فلا يختزل المسائل الكبيرة في أطر محدودة ؛ ولا يتعامل مع المسائل الطارئة بنظرة عاطفية أو ردود أفعال ، فلا يخلط في تقدير المصالح والمفاسد ، يدرك ترتيب الأولويات ؛ وتقديم الأهم فالمهم ، مستوعب فقه تنزيل الأحكام وبنائها .

٣ -الخروج من التربية التقليدية الجامدة التي تنتشر في كثير من المحاضن التربوية والتعليمية ، وتشكل عقول الناس تشكيلاً يقتل معظم ملكات الإبداع والتفكير، فتكتفي بالنظر إلى ظواهر الأمور المجردة، والتعلق بقشورها القريبة دون النفاذ إلى أعماقها ؛ أو النظر إلى أبعادها ومقاصدها، ويؤدي ذلك إلى الاغترار بالشكل والمنظر على حساب الحقائق والمضامين .

لذلك تزداد حاجتنا كل يوم إلى توسيع مداركنا، واكتساب المعرفة من خلال البحث والنظر، والتأمل والقراءة، لنواكب المتغيرات السريعة في عالمنا ، حتى نتمكن من إيصال رسالة الإسلام الخالدة، ملائمة لكل عصر ومصر ، لا تقف عند حد معين، أو فهم قاصر، أو نظرة جزئية تشوه معالم الإسلام ، وتفتح باب للفتن بين المسلمين وتصد غيرهم عن اتباعه .

النتائج والتوصيات:

وختاماً: نحمد الله أولاً وآخراً، على تيسيره وعونه على إتمام هذا البحث، فهو صاحب الفضل والجود والكرم، كما تُلخص أهم نتائج البحث وتوصياته فيما يلي:

أولا: النتائج:

١-يتعلق البناء الفكري بالعقل، وسلامة العقل لا تتحقق إلا ببنائه بالعلم والمعرفة ،القائمة على الاستنباط والنظر والتأمل، ولذا أقام القرآن الكريم ،المنهج على أساس الفقه، وحسن الفهم ، عن طريق الاستدلال العقلي ، وفتح باب النظر في المآلات .

٢ - التقليد مصدر للغلو، وباب يلج منه الغالي ، حيث جر ويلات كثيرة على الفرد نفسه ، وجعله مجرد أداة لتصورات وأفهام الآخرين ، وأوجب أنواعا من الفساد على الأمة ، فمزق نسيجها الاجتماعي ،بعد أن أدى إلى التكفير والتفسيق والتبديع .

٣ - إن الوقوع في أسر المسائل الجزئية والنصوص المبتورة، أدى إلى بناء فكر غير سوي أنتج تصورات مغلوطة، قادة إلى ظاهرية مفرطة، جردت النصوص من مقاصدها وحكمها وعللها، وجمدت على ألفاظها، وأفسدت تناسقها وتكاملها وترابطها.

٤ - للبيئة الاجتماعية تأثيرها في بناء الفكر، وصياغة طرائق التفكير، وتوجيه التصرف لما لها من ملازمة دائمة لحياة الإنسان من مولده إلى مماته ، فكلما كانت البيئة سليمة أنتجت شخصا سويا في الفكر والتصور، والعكس ، البيئات الملوثة فكرياً أو أخلاقياً أو عقائدياً، تنتج فكراً غير سوي.

٥ - أسلوب التربية في البيت يضع الأسس الأولى لشخصية الإنسان وقيمه ، وسلوكياته التي تشكل في ما بعد طرائق تفكيره وتعامله مع القضايا المختلفة.

٦ - إن إدراكنا لمنهجية القرآن في بناء الفكر، من خلال عرضه للقضايا العقدية والفكرية المختلفة، ثم الاستدلال على المنهجية السوية، والطريق المستقيم ، يبني الفرد المتزن الذي يقبل بالتنوع والتعايش مع من يختلف معهم .

ثانيا: التوصيات:

في ضوء مضامين البحث ونتائجه يوصي الباحث بما يلي:

١ - حث الأسرة على القيام بدورها من خلال تربية الأبناء على ثقافة الحوار وقبول الآخر، وتوجيه الأبناء إلى الرفقة الصالحة ، وتحذيرهم من رفقة السوء ، وكذا تحذيرهم من مخاطر وسائل الاعلام المشبوهة .

٢ - تنبيه الآباء والمعلمين إلى خطورة النقد غير المسؤول أمام الأبناء والمتعلمين ، ومحاولة فرض الآراء ، وعدم إتاحة الفرص للنقاش والمراجعة والمحاورة.

٣ - يوصي البحث الدعاة وخصوصا الشباب بالتحصيل العلمي النافع ، و بالاطلاع المستمر على ما عند الآخرين، وإجادة ثقافة الحوار ، وتكثيف مواقع الدعوة إلى الإسلام وبيان سماحته، وسطيته ، والدفاع عنه على شبكة الإنترنت وغيرها من الوسائل الحديثة.

٤ - أن تهتم وسائل التعلم المختلفة ببناء الفكر تدريجيا ، من خلال الأهم فالمهم ،والمساهمة في سد الثغرات الفكرية والمنهجية ، ومعالجة الآفات التربوية والسلوكية التي عانى و ما زال يعاني منها المسلمون في الفكر و السلوك .

والحمد لله رب العالمين

المصادر والمراجع

١- ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ، اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم ،تحقيق: ناصر عبد الكريم العقل، دار عالم الكتب، بيروت، لبنان،ط السابعة، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٢- ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ،مجموع الفتاوى ،دار الكتب العلمية،ط٢.

٣- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام، منهاج السنة النبوية، تحقيق: الدكتور محمد رشاد سليم.

٤- ابن حجر ، أحمد بن علي بن حجر ،تقريب التهذيب، دار الرشيد – سوريا الطبعة الأولى ، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م.

٥- ابن حجر؛ أحمد بن علي بن حجر ، فتح الباري شرح صحيح البخاري ، دار الحديث القاهرة ، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ . ١٩٩٨م.

٦- ابن فارس ، معجم المقاييس في اللغة ، دار النشر: دار الجيل - بيروت - لبنان ، الطبعة الثانية - ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون.

٧- ابن القيم؛ أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، إعلام الموقعين عن رب العالمين، دار النشر: دار الجيل - بيروت - ١٩٧٣، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد.

٨- ابن القيم : أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي ،مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والارادة ،بيروت دار الكتب العلمية ط١٩٩٤ .

٩- ابن منظور، لسان العرب. دار النشر: دار صادر - بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ .

١٠-أبو داوود؛ سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي، سنن أبي داود ، دار النشر: دار الفكر ،بيروت - تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد .

١١-أحمد بن حنبل: المسند تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الحديث – القاهرة الطبعة :الأولى، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م.

١٢-أحمد بن محمد الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، بدون طبعة (دار الفكر بدون تاريخ)

١٣- الألباني ؛محمد ناصر الدين، صحيح الترغيب والترهيب: مكتَبة المَعارف لِلنَشْرِ والتوزيْع، الرياض - المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م.

١٤- البخاري؛ محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، صحيح البخاري ، الجامع الصحيح المختصر، تحقيق، محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)الطبعة :الأولى، ١٤٢٢هـ.

١٥- جميل صليبا، المعجم الفلسفي (بيروت: دار الكتاب اللبناني ١٩٨٢ م).

١٦- الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد الصحاح ، دار إحياء التراث العربي. بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٩م.

١٧- الحاكم ؛ محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين ، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١١هـ - ١٩٩٠م ، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا.

١٨- الراغب الأصفهاني:مفردات ألفاظ القرآن ، بيروت، دار المعرفة ط١٩٩٩م.

١٩- الراغب الأصفهاني : الذريعة إلى مكارم الشريعة، ،تحقيق :د.أبو يزيد العجمي ،دار السلام ، القاهرة ٢٠٠٧م.

٢٠- الزبيدي؛ محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، دار النشر: دار الهداية، تحقيق: مجموعة من المحققين.

٢١- الزمخشري أبو القاسم محمود بن عمر ،أساس البلاغة، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.

٢٢- الشاطبي: الاعتصام ، دار النشر :المكتبة التجارية الكبرى – مصر .

٢٣- الشاطبي؛ إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي، الموافقات في أصول الفقه، الناشر :دار ابن عفان الطبعة :الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م تحقيق :أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان .

٢٤- المناوي: فيض القدير شرح الجامع الصغير ، المكتبة التجارية الكبرى ، مصر ،ط : الأولى١٣٥٦هـ .

٢٥- مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٢٦- المناوي: محمود بن محمد فيض القدير شرح الجامع الصغير ، المكتبة التجارية الكبرى ، مصر ،ط : الأولى١٣٥٦هـ .

٢٧- النووي؛ يحيى بن شرف بن مري النووي ،المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ، دار المعرفة؛ بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ. ١٩٩٤م.

جامعة الناصر

AL-NASSER UNIVERSITY